الصبر
أقسامه وثمراته

إعداد

أم عبد الرحمن

مصدر هذه المادة:







المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الصابرين محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد:

إن من عرف هذه الدنيا على حقيقتها علم أنها دار المصائب والشرور، وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، قال الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها
صفوًا من الأقذاء والأكداء

لذلك فإن العبد في هذه الدار لا يستغنى عن الصبر في أي حال من أحواله، فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله فلابد له من الصبر عليه، وبين نهي يجب عليه اجتنابه فلا بد له من البصر عنه، وبين قضاء فيه بلية يجب الصبر عليه، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات. قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة.

ولأهمية الصبر سنتعرض لتعريف وأنواعه وما يهون المصائب وثمرات الصبر.

تعريف الصبر: ١- معنى الصبر لغة: الإمساك في ضيق، يقال صبرت الدابة: بمعنى حبستها بلا علف.

وقيل معناه: الحبس والكف، ومنه قتل فلان صبرًا، إذا أمسك وحبس، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] أي: احبس نفسكم معهم.

معنى الصبر شرعًا: قال الطبري: الصبر: منع النفس محابها وكفها عن هواها، وعرفه آخرون بأنه: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن كل فعل محرم كلطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور.

منزلة الصبر:

الصبر من أعظم المنازل التي حض عليها الإسلام فقد ذكره الله في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا، وكذلك السنة النبوية نوهت بفضله ودعت إليه، وقد جعل الله سبحانه جزاء أهله من أعظم الجزاء ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال بعض السلف: لا تُكال الأجور للصابرين، ولا تُوزن، وإنما تغرف لهم غرفًا وقال ﷺ: «**والصلاة نور والصبر ضياء**»، قال الشيخ ابن عثيمين: «فالصلاة نور للعبد في قلبه وفي وجهه وفي قبره وفي حشره، ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوه أكثرهم صلاة وأخشعهم فيها لله عز وجل، فهي نور للإنسان في جميع أحواله، وهذا يقتضي أن يحافظ الإنسان عليها، وأن يحرص عليها، وأن يكثر منها حتى يكثر نوره وعلمه وإيمانه، وأما الصبر فقال إنه «**ضياء**» أي فيه نور، لكن نورًا مع حرارة كما قال لله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فالضوء لابد فيه من حرارة وهكذا الصبر لابد فيه من حرارة وتعب لأن فيه مشقة

كبيرة، ولهذا كان أجره بغير حساب. فالفرق بين (النور في الصلاة) و (الضياء في الصبر)، أن الضياء في الصبر مصحوب بحرارة لما في ذلك من التعب القلبي والبدني في بعض الأحيان».

أقسام الصبر:

١- صبر على طاعة الله.

٢- صبر على معصية الله.

٣- صبر على الأقدار.

والصبر على الطاعة أفضل الأنواع الثلاثة، لأن فعل الطاعة آكد من ترك المعصية، والصبر على الطاعة وعن المعصية أكمل من الصبر على الأقدار، فإن الصبر فيها اختيار وإيثار ومحبة، أما الصبر على المصيبة فإنه أمر جرى بغير اختيار العبد ولا كسب له فيها، فليس له فيها حيلة غير الصبر[1].

وبانعدام الصبر في النوعين الأولين تكون مصيبة الدين ونهايتها

(١) قال ابن تيمية رحمه الله: (كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه.. فإن هذه الأمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها. ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس. ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شابًا وعزبًا وغريبًا ومملوكًا. والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية إليه نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته – إن لم يفعل – بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه). اهـ مختصرًا.

الخسران الذي لا ربح معه، والحرمان الذي لا عوض فيه.

والمصيبة حقًا هي مصيبة الدين، وما سواها من المصائب فيه عافية لما يجني العبد من ورائها من الثمرات كتفكير للسيئات ورفعه للدرجات.. ذكر ابن القيم في كتابه (عدة الصابرين): أنه حفظ من خطب الحجاب «اقعدوا هذه النفوس فإنها طُلعة إلى كل سوء، فرحم الله امرءًا جعل لنفسه خطامًا وزمامًا فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه».

وسنتناول هذه الأنواع بالتفصيل:

أولاً: الصبر على الطاعة: وهو الثبات على أحكام الكتاب والسنة، وينقسم إلى ثلاثة أحوال:

١- حال قبل العبادة: وهو تصحيح النية والإخلاص والصبر على شوائب الرياء.

٢- حال في نفس العبادة: وهو أن لا يغفل العبد عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن.

٣- حال بعد الفراغ من العبادة. وهو الصبر عن إفشائه والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها».

والصبر على الطاعة إنما يكون بمجاهدة النفس على التقى لتفوز بمرضاة الله سبحانه ولذلك يقول ابن القيم: «لا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر» وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا**

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] صبر على أداء الفرائض في وقتها وخصوصًا صلاة الفجر، فقد تتكاسل النفس عندما ترى لذة النوم وراحة المنام، فهنا مقام الصبر على الطاعة، وقد تتقاعس عن صيام النوافل فهنا مقام الصبر عندما يتذكر ما يقال للصائمين غدًا **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾** [الحاقة: ٢٤] وقد تكل النفس من تربية الأبناء على الصلاح والطاعة أو تعاني من تمردهم وعصيانهم ما يسبب الهم والغم فهنا مقام الصبر، قال بعض السلف: إن من الذنوب من لا يكفرها إلا الهم بالأولاد.

وقد جعل الله سبحانه الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين، قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾** [السجدة: ٢٤] فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لابد فيه من الصبر بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر كما قال معاذ ﷺ: «عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يعرف الله ويعبد، وبه يمجد الله ويوحد، يرفع الله بالعلم أقوامًا ليجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم وينتمون إلى رأيهم، فجعل البحث عن العلم جهاد، ولابد في الجهاد من الصبر».

والخلاصة أنه لابد للعبد من مجاهد النفس والصبر على الطاعة ليحصل له العاقبة الحسنة في الدارين كما قال ابن رجب: «فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلبه، وحصل له النصر والظفر وملك نفسه فصار عزيزًا ملكًا، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك قهر وغلب وأسر وصار عبدًا ذليلاً أسيرا في يدي

شيطانه وهواه كما قيل:

إذا المـــرء لم يغلـــب هـــواه أقامـــه
بمنزلـــة فيهـــا العزيـــز ذليـــل.

ومن أعظم ما يعين على الصبر على الطاعة: معرفة ثمرات تقوى الله وطاعته؛ من البركة في العمر والرزق والولد، وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب، ونيل محبة الله، والأمن من العذاب يوم القيامـة، ونيل محبة الله، والأمن من العذاب يوم القيامة، ودخول الجنـة دار النعيم والكرامة.

ثانيًا: الصبر عن المعصية: وهو إمساك النفس عن الوقـوع في المحرمات، ومن الملاحظ أن هناك كثيرًا من الناس من يصبر علـى الطاعة ولكن يقع في المعصية لعدم صبره عنها وخصوصًا معاصـي اللسان من غيبة ونميمة، قال عمر بن عبد العزيز: «لـيس التقـوى بقيام الليل وصيام النهار والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فمن رزق بعد ذلك خيرًا فهو خير على خير». وفي الحديث عنه ﷺ: «**اللهم اقسـم لنـا مـن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك**» لأن القلب إذا امتلأ من الخوف من الله أحجمت الأعضاء جميعها عن ارتكاب المعاصـي، وبقدر قلة الخوف يكون الهجوم على المعاصي، فإذا قـل الخـوف واستولت الغفلة كان ذلك من علامة الشقاء، قال بعض السـلف: «المعصية إلى الغافل أسرع انحدارًا من الصخرة إلى المكان السـافل وإذا أسكن الخوف القلب أحرق الشهوات».

والصبر عن المعصية يكون بكف النفس عما حرمه الله عليها، لأن النفس الأمارة بالسوء تدعو إلى السوء فيصبر الإنسان نفسه، قال ﷺ: «**ومن تصبر يصبره الله**» وعليه أن لا ينساق وراء هواه، فقد عاب الله من فعل ذلك وسماه إله له فقال: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الفرقان: ٤٣] قال قتادة: «هو الذي كلما هوى شيئًا ركبه وكلما اشتهى شيئًا أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى» وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**» قال الشعبي: «إنما سمي الهوى لأنه يهوى بصاحبه». قال ابن رجب: «من أحب شيئًا مما يكره الله أو كره شيئًا مما يحبه الله لم يكمل توحيده ولا صدقه في قول لا إله إلا الله».

ومن أعظم ما يعين على ترك المعصية: إجلال الله أن يعصى وهو يرى ويسمع، إيثار محبة الله تعالى فإن المحب لمن يحب مطيع، خوف الله وخشية عقابه، مجانبة الفضول في الطعام والشراب والملبس والمنام والاجتماع بالناس، معرفة آثار الذنوب وسوء عاقبتها وقبح أثرها، من ذلك؛ سواد الوجه وظلمة القبر وزوال الأنس والطمأنينة بالله والسكون إليه، ونقصان الرزق، ومحق بركة العمر، وحرمان حلاوة الطاعة، وإعراض الله وملائكته وعباده عنه، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه فأعرضت عنه ملائكته وعباده كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه... فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها

العبد علمًا. فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله. وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته.

وفي بعض الآثار: يقول الله: من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟ ومن الذي عصاني فسعد بمعصيتي؟.

ثالثًا: الصبر على الأقدار: وهو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، هذا وليعلم العبد أن العوارض والمحن هي كالحر والبرد لابد للعبد منها فلا يجزع ويسخط، وطريق الابتلاء معبر شاق؛ تعب فيه آدم، ورمي في النار الخليل، واضطجع للذبح إسماعيل، وألقي في بطن الحوت يونس، وقاسى الضر أيوب، وبيع بثمن بخس يوسف، وألقي في الجب إفكًا، وفي السجن ظلمًا، وعالج أنواع الأذى نبينا محمد ﷺ. وأنت على سنة الابتلاء سائر. والدنيا لم تصفُ لأحد ولو نال منها ما عساه أن ينال. قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**».

والناس في العافية سواء، فإذا جاءت البلايا استبان الصادق من الكاذب، وأحوالهم عند المصائب أربعة أقسام:

١- التسخط:

(أ) وذلك أن يكون بالقلب: كأن يسخط العبد على ربه، يغتاظ مما قدره الله عليه، فهذا حرام، وقد يؤدي إلى الكفر ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**﴾ [الحج: ١١].

(ب) أن يكون باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك،

قال ابن الجوزي: (رأيت رجلاً كبيرًا قد قارب الثمانين وكان يحافظ على الجماعة فمات ولد ابنته، فجزع وتلفظ بكلام فيه تسخط، فعلمت أن صلاته وفعله للخير عادة لأنه لا ينشأ عن معرفة وإيمان، وهؤلاء من الذين يعبدون الله على حرف).

(ج) أن يكون بالجوارح كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك وكل ذلك حرام مناف للصبر الواجب، قال ابن مسعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوبًا أو ضرب صدرًا فكأنما أخذ رمحًا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل.

إن على العبد أن يحذر أن يتكلم في حال مصيبته وبكائه بشيء يحبط به أجره، ويسخط به ربه مما يشبه التظلم. فإن الله سبحانه عدل لا يجور، عليم حكيم له الأمر من قبل ومن بعد، بل إن موقف المسلم حال المصائب أن يتكلم بكلام يرضي به ربه، ويكثر به أجره، ويرفع الله به قدره.

٢- الصبر:

يرى أن هذا الشيء ثقيل عليه لكن يتحمله، وهو يكره وقوعه، ولكن يحميه إيمانه من السخط، فليس وقوعه وعدمه سواء عنده. وهذا واجب لأن الله تعالى أمر بالصبر ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦] قال ابن الجوزي: «وليعلم العاقل أن البلايا ضيوف فليعد لها قرى الصبر» قال بعض الحكماء: «العاقل في أول يوم من المصيبة يفعل ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم».

٣- الرضا:

بأن يرضى بالمصيبة، بحيث يكون وجودها وعدمها سواء، فلا يشق عليه وجودها، ولا يتحمل لها حملاً ثقيلاً، وهذه مستحبة وليست بواجبة على القول الراجح. والفرق بينها وبين المرتبة التي قبلها ظاهر لأن المصيبة وعدمها سواء في الرضا عند هذا، وأما التي قبلها فالمصيبة صعبة عليه لكن صبر عليها.

٤- الشكر:

وهذه أعلى مراتب الصبر وذلك بأن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة حيث عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير ذنوبه، وربما لزيادة حسناته، فالمصائب نعمة لأنها تكفر الذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله، والذل والإعراض عن الخلق إلى غير ذلك من المصالح.

تعريف المصيبة: كل ما أساءك مصيبة.

لما انقطعت نعل عمر بن الخطاب ﷺ استرجع وقال: «كل ما أساءك مصيبة» قال أبو بكر: «إن المسلم ليؤجر في كل شيء حتى في النكبة وانقطاع شسعه والبضاعة تكون في كمه فيفقدها فيفزع لها فيجدها في غبه» ويقول عليه الصلاة والسلام: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**» وقال لقمان لابنه: «يا بني: الذهب والفضة يختبران بالنار والمؤمن يختبر بالبلاء» قال ابن الجوزي: «وإن كانت المصائب مما يمكن كتمانها فكتمانها

من نعم الله عز وجل. وقال علي ﷺ: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك».

فالمؤمن الموفق من يتلقى المصيبة بالقبول، ويجتهد في كتمانها ما أمكن، وأما إذا كان الإخبار على سبيل الاستعانة بإرشاده، أو معاونته، والتوصل إلى زوال ضرره، وليس للشكوى فقط فلا يقدح ذلك في الصبر.

ولنتأمل كيف كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يتلقون المصائب بالصبر وما ذاك إلا لقوة إيمانهم:

لما بلغ ابن عباس وفاة أخيه «قثم» وهو في سفر استرجع ثم تنحى عن الطريق، فأناخ راحلته، وصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ قال بعض السلف في قوله: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ إنهما معونتان على رحمة الله.

وقال سبحانه: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] ﴿**إِنَّا لِلَّهِ**﴾: إقرار بالعبودية والملك واعتراف العبد لله بما أصابه منه، فالملك يتصرف في ملكه كيف يشاء. وقوله: ﴿**وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ إقرار بأن الله يهلكنا ثم يبعثنا فله الحكم في الأولى، وله المرجع في الأخرى، وفيه كذلك طلب ورجاء ما عند الله من الثواب.

وكذلك يسن للمصاب أن يقول «**اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها**» كما ورد ذلك عن أم سلمة رضي الله عنها

أنها قالت بعد وفاة زوجها أبو سلمة، والقصة بكاملها كما روتها رضي الله عنها، «لما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابًا لي فغسلت يدي، وأذنت له فوضعت له وسادة أدم، حشوها ليف، فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله: مالي أن لا يكون لي بك رغبة، ولكني امرأة في غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال فقال: «**أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي**». فقلت: «سلَّمت لرسول الله ﷺ فكانت أم سلمة تقول بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه رسول الله ﷺ».

ومما ينبع له هنا وهو من باب التسخط على المصيبة: قيام بعض الناس بترك الزينة والطيب ربما أيامًا طويلة أو شهورًا حزنًا على وفاة أخ أو أب أو غير ذلك أو التغيب عن الوظيفة نحو أسبوع أو ترك حضور الولائم مدة طويلة، كل ذلك لا يجوز أكثر من ثلاث ليال [1] لما ورد عن أم حبيبة رضي الله عنها لما توفي أبوها «سفيان بن حرب» دعت بطيب ثم مسحت بعارضيها بعد مرور ثلاث ليال ثم قال: والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا**».

(١) لما في ذلك من التسخط على المصيبة.

طعام المصاب: في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تأمر بالتلبينة للمريض والمحزون على المهالك وتقول: إن رسول الله ﷺ يقول: «**التلبينة مجمة لفؤاد المريض تذهب ببعض الحزن**» التلبينة: حساء دقيق أو نخالة، مجمة: مريحة له: أي تريحه وتسكنه، من الإجمام وهو الراحة.

ومن المصائب: استطالة الناس في عرض المرء وكثرة القيل والقال... ولابد هنا من الصبر [1] ولذلك بوَّب البخاري في صحيحه (باب الصبر على الأذى) وقول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ ثم أورد حديثًا عن أبي موسى عن النبي ﷺ: «**ليس أحد – أو ليس شيء – أصبر على الأذى من الله إنهم ليدَّعون له ولدًا وإنه يعافيهم ويرزقهم**» وذكر البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قسم قسمة كبعض ما كان يقسم فقال رجال من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله فلما أخبر النبي ﷺ بقوله قال: «**قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر**». قال ابن حجر: (باب الصبر على الأذى) أي: حبس النفس على التألم بما يفعل بها ويقال فيها. ولهذا شق على النبي ﷺ نسبتهم له إلى الجور في القسمة، لكنه حلم عن القائل فصبر لما علم جزيل ثواب الصابرين، وأن الله يأجره بغير حساب، والصابر أعظم من المنفق لأن حسنته مضاعفة إلى سبعمائة، والحسنة في الأصل بعشر أمثالها إلى ما شاء الله أن يزيده». اهـ. ويقول سبحانه: ﴿**فَمَنْ**

(١) ومن فضل الله أن المسلم يؤجر إذا ذمه الناس ولا يؤجر إذا مدحوه.

عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] قال الحسن البصري: إذا كان يوم القيامة ناد مناد من بطن العرش ألا ليقم من وجب أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح.

وقال سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس، وما يلقاها إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

وقد عمل السلف بهذه الوصية العظيمة: يذكر أن رجلاً شتم ابن عباس رضي الله عنهما فلما قضى قال: يا عكرمة انظر هل للرجل حاجة فنقضيها، فنكس الرجل رأسه واستحى.

واستطال رجل على أبي معاوية الأسود فقال له رجل: مه قال أبو معاوية: دعه يستشفي ثم قال: اللهم اغفر الذنب الذي سلطت علي به.

وقد أمر لقمان ابنه بالصبر كما ذكر الله سبحانه في كتابه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر.

ومما ينبه إليه في هذا المقام أنه لا يجوز هجر المسلمين لأمور دنيوية أكثر من ثلاث ليال كما قال ﷺ: «**لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما**

الذي يبدأ بالسلام» قال ابن حجر: قال العلماء: تحرم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال بالنص، وتباح في الثلاث بالمفهوم، وإنما عفي عنه في ذلك لأن الآدمي مجبول على الغضب فسمح بذلك القدر ليرجع ويزول ذلك العارض» وقوله ﷺ: «**وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**» قال ابن حجر: زاد الطبري من طرق أخرى عن الزهري «**يسبق إلي الجنة**» ويا لها من بشارة عظيمة لمن عقلها وعمل بها، ولأبي داود بسند صحيح من حديث أبي هريرة «**فإن مرت ثلاث فلقيه فليسلم عليه فإن رد عليه فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم، وخرج المسلم من الهجرة**».

ومن المصائب المرض: قال ابن أبي الدنيا: كانوا يرجون – أي السلف – في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب، وقال عروة بن الزبير لما قطعت رجله من الآكلة: إنه مما يطيب نفسي عنك أني لم أنقلك إلى معصية لله قط، واشتكى ابن أخي الأحنف بن قيس وجع ضرسه فقال له الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد. وعن مسلم بن يسار: كان السلف إذا بريء أحدهم من مرض قالوا له: ليهنك الطهر يعني: هنيئًا لك الخلاص من الذنوب، ويذكر أن إحدى نساء السلف لما جرحت يدها جرحًا شديدًا لم يظهر عليها التأثر فقيل لها في ذلك فقالت: حلاوة أجرها أنستني مرارة طعمها.

ومن المصائب: كل ما أهم المؤمن: ورد عن امرأة من العابدات في البصرة، أنها كانت تصاب بالمصائب فلا تجزع فذكروا لها ذلك

فقالت: ما أصاب بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب.: وفي الحديث عنه ﷺ: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا**» قوله (من اليقين): أي ارزقنا اليقين بك وأنه لا راد لقضائك وقدرك «**ما يهون علينا مصائب الدنيا**» بأن نعلم أن ما قدرته لا يخلو عن حكمة ومصلحة، واستجلاب ثواب، وأنك لا تفعل بالعبد شيئًا إلا وفيه صلاحه».

قال ابن الجوزي: لو أن ملكًا قال لرجل فقير: كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار لأحب الفقير كثرة الضرب لا لأنه لا يؤلم ولكن لما يرجو من عاقبته وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف تلمحوا الثواب فهان عليهم البلاء.

ما يهون المصيبة

١- لابد أن يعلم المصاب أن الذي ابتلاه بالمصيبة هو أحكم الحاكمين، وارحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، ويسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحًا على بابه، لائذًا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعًا قصص الشكوى إليه، إن كان غافلاً فحري به أن يرجع إلى الحق، وإن كان تقيًا كان ذلك سببًا لرفع درجاته.

قال الفضيل: إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ

الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فعلى العبد أن يجاهد نفسه بحملها على الصبر وسيجد ثمرة ذلك كما قال ﷺ: «**ومن يصبر يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير واسع من الصبر**».

٢- إن المصيبة قد قدر وقوعها العليم الحكيم كما قال سبحانه: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** [الحديد: ٢٢].

وقال ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**» وقول ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل أجلها**» وقال ﷺ: «**واعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك وما أصابكم لم يكن ليخطئك**».

قال ابن حجر: أنه قد فرغ مما أصابك أو أخطأك من خير أو شر، فما أصابك فإصابته لك محتومة، ولا يمكن أن يخطئك، وما أخطأك فسلامتك منه محتومة فلا يمكن أن يصيبك، لأنها سهام صائبة وجهت من الأزل فلابد أن تقع مواقعها» وقال الحسن: نعم والله، إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلاً أنه كائن

في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا، في الخاصة والعامة حتى أن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر. وقال ابن مسعود: إن أول شيء خلقه الله عز وجل القلم فقال له: اكتب فكتب كل شيء يكون في الدنيا إلى يوم القيامة فيجمع بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد فلا يخالف ألفًا ولا واوًا أو ميمًا».

وقال ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان، وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى، وهذا التقدير السنوي في ليلة القدر كالتفصيل من القدر السابق، قال ابن القيم: «وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ فتنسخ الملائكة ما يكون من أعمال بني آدم قبل أن يعملوها فيجدون ذلك موافقًا لما يعملونه فيثبت الله تعالى منه ما فيه ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو».

إن الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم الأسباب لتحمل المصائب... وقد انبهر بعض الكفار وعجبوا من حال المسلمين عند وقوع المصائب. وإليك أخي القارئ هذه القصة الواقعية:

كتب (بودلي) – رجل أوروبي مل من حياة الغرب فسكن في

شمال أفريقيا – تحت عنوان (عشت في جنة الله): في عام ١٩١٨م أوليت ظهري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم وآكل من طعامهم، واتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى إنني ألفت كتابًا عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول) وقد كانت تلك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنين حياتي، وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضا بالحياة. وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق؛ فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر. وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذًا سهلاً هينًا، فهم لا يلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق على أمر، أنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له، وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا! ! ودعني أضرب مثلاً لما أعنيه: هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ورمت بها وادي الرون في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة حتى أحسست كأن شعر رأسي ينتزع من منابته لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأني مدفوع إلى الجنون، ولكن العرب- يقصر المسلمين – لم يشكوا إطلاقًا! ! فقد هزوا أكتافهم، وقالوا حكمتهم المأثورة (قضاء مكتوب) ولكنهم ما أن مرت العاصفة

حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير؛ فذبحوا صغار الخراف قبـل أن يودي القيظ بحياهّا، فعلوا ذلك كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى.. قال رئيس القبيلة: لم نفقد الشيء الكثير فقد كنا خلفاء بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدًا لله وشكرًا فإن لـدنيا نحو ٤٠% من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنـا مـن جديد).

٣- إن الصبر على المصيبة كنز عظيم من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم، فقد ابتلي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصبروا، بل إنهم من أشد الناس ابتلاءً كما قال ﷺ: «**أشد النـاس بـلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» فالصـبر سمـة الأنبيـاء والصالحين، قال سبحانه: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُـلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وقد أثنى الله على أيوب عليه السلام لمـا ابتلى بالمرض فصبر ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] قال ابن القيم: فأطلق عليه نعم العبد لكونه وجـده صـابرًا، وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي فإنه بئس العبد».

٤- التسلية في بيان رحمة الله، وأن رحمته سبحانه وسعت كل شيء وأنه كتب على نفسه الرحمة، كما قال سبحانه في الحـديث القدسي: «وغلبت رحمتي غضبي».

٥- العلم بأن تشديد البلاء يخص الأخيار، وأن الله إذا أحـب عبدًا ابتلاه قال ﷺ: «**أشد الناس بلاءًا الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» وليعلم المصاب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب

العبد من مرض الكبر والعجب وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً أو آجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأمراض وحفظًا لصحة عبوديته، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه.

٦- العلم بأن المصاب ليس أول من أصيب بهذه المصيبة وهذه مما يهون وقع المصيبة عليه، ولذلك أهل النار أغلق الله عز وجل عليهم الباب قال سبحانه: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] وذلك زيادة في عذابهم، فمن فقد ولده فليحمد الله أن أبقى له أولاده الآخرين، ومن أصيب بمرض فليتذكر من هو أشد منه مرضًا، وفي قصة عروة بن الزبير رحمه الله عبرة وعظة.. لما قطعت قدمه جعل يقبلها ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية، ولا على ما لا يرضي الله، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما رآه ابن طلحة قال له: قد أبقى الله أكثرك: عقلك، ولسانك، وبصرك، ويداك وإحدى رجليك فقال له: ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به».

وروي أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها، وبلغ أرض بابل مرض مرضًا شديدًا فلما أشفق أن يموت، كتب إلى أمه: يا أماه اصنعي طعامًا واجمعي من قدرت عليه ولا يأكل طعامك من أصيب. فلما وصل كتابه، صنعت أمه طعامًا وجمعت الناس وقالت: لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة، فلم يأكلوا، فعلمت ما أراد فقالت: من يبلغك عني يا ولدي أنك وعظتني فاتعظت،

وعزيتني فتعزيت، فعليك السلام حيًا وميتًا. قال شريح رحمه الله: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عز وجل عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني».

نعم أن أعظم المصائب مصيبة الدين، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» وعن دعاء المؤمنين (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا).

٧- ومما يهون المصيبة أن الله سبحانه قد أراد بعبده المبتلى خيرًا كما قال ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده شرًا أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**» قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الحديث: «الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا إما بماله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل بهم، المهم أن تعجل له العقوبة لأن العقوبات تكفر السيئات، فإذا تعجلت العقوبة، وكفر الله بها عن العبد، فإنه يوافي الله وليس عليه ذنب قد طهرته المصائب والبلايا حتى إنه ليشدد على الإنسان عند موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه حتى يخرج من الدنيا نقيًا من الذنوب، وهذه نعمة لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، لكن إذا أراد الله بعبده شرًا مهَّل له، واستدرجه، وأدر عليه النعم، ودفع عنه النقم، حتى يبطر، ويفرح فرحًا مذمومًا بما أنعم الله به عليه وحينئذ يلاقي ربه وهو مغمور بسيئاته فيعاقب بها في الآخرة

نسأل الله العافية». اهـ.

٨- ومما يهون المصيبة أن الله قد يجعل المصيبة حائل ومنعه للمبتلى من الوقوع في المعاصي. فكم من ابتلي بمرض حبسه عن مجالس الفسق فأشغل وقته بالذكر والدعاء والاستغفار ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾... وإليك أخي القارئ هذه القصة:

عن عثمان بن الهيثم قال: كان رجل من بني سعد، قائدًا من قواد عبيد الله بن زياد فسقط عن السطح فانكسرت رجلاه، فدخل عليه أبو قلابة يعوده فقال له: أرجو أن تكون خيرة. فقال له: يا أبا قلابة وأي خير في كسر رجلي جميعًا؟ ! ! فقال ما ستر الله عليك أكثر... فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد أن يخرج فيقاتل الحسين فقال للرسول: قد أصابني ما ترى، فما كان إلا سبعًا حتى وافى الخبر بقتل الحسين. فقال الرجل: رحم الله أبا قلابة لقد صدق، إنه كان خيرة لي.

٩- ومما يهون ويطيب قلوب أهل المصائب عند موت قريب أو عزيز وصول أعمال البر إليه من صدقة وأضحية، ودعاء، ووقف خيري، وحج أو عمرة... وهذا من فضل سبحانه على الأموات قال الشيخ صالح الفوزان: (... وعذاب القبر نوعين: النوع الأول: دائم، وهو عذاب الكافر كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] النوع الثاني: يكون إلى مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة من المؤمنين فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه، وقد ينقطع عنه العذاب بسبب دعاء أو صدقة أو

استغفار). اهـــ. شرح العقيدة الواسطية.

ثمرات الصبر:

١- جعل الله سبحانه الإمامة في الدين موروثة عـــن الصـــبر واليقين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

٢- تسليم الملائكة على الصـــابرين في الجنـــة ﴿وَالْمَلَائِكَـــةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَـــبَرْتُمْ فَـــنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] قال الفضيل: صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه.

وقد وصف الله سبحانه أهـــل الجنـــة بالصـــبر ﴿الصَّـــابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

٣- إن الله جمع أمورًا للصابرين لم يجمعها لغيرهم ﴿أُولَئِـــكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين.

٤- معية الله للصابرين ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

٥- نيل الأجر بغير حساب كمـــا قـــال الله ﴿إِنَّمَـــا يُـــوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال سليمان بن القاســـم: كـــل عمل يعرف ثوابه إلى الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْـــرِ حِسَابٍ﴾ قال: كالماء المنهمر، قال الأوزاعي: ليس يوزن لهـــم ولا يكال لهم وإنما يغرف لهم غرفًا، يقول الشيخ ابن عثيمين تعليقًا على

هذه الآية: «يعطون أجرهم بغير حساب لأن الأعمال الصالحة مضاعفة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، أما الصبر فإن مضاعفته تأتي بغير حساب من الله وهذا يدل على أن أجره عظيم» قال بعض السلف: إذا أعجبتك نفسك في قيام الليل فتذكر من هم أرفع منزلة منك نائمون على فرشهم، هم أهم البلايا الصابرين.

٦- الأجر العظيم للمصاب، وإن تقادم عهد المصيبة كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعًا إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب**».

٧- إن الصبر سبب لهداية القلوب وزوال قسوتها وحدوث رقتها وانكسارها، فكم من غافل رجع إلى ربه عندما أصيب بمرض، وكم من لاه أقبل على مولاه عندما أصيب بفقد عزيز، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنه من عند الله فيرضى ويسلم، ومعنى الآية: أن من أصابته مصيبة فعلم أنها من قدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه خيرًا كما قال سبحانه ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ...﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

٨- إن الصبر سبب في دخول الجنة، قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] قال بعض السيف: من خلفه الله للجنة لم تزل تأته المكاره. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعطاء: ألا أريك امرأة من أهل الجنة، هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ وقالت: إني أصرع وإني أتكشف فأدع الله لي فقال ﷺ: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**» قالت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشف فأدع الله أن لا أتكشف) فدعا لها، وفي الحديث القدسي: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة» حبيبتيه عينيه.

٩- أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام، ومقامات الإيمان كلها مقرونة بالصبر ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وقرنه بالأعمال الصالحة عمومًا ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] وجعله قرين التقوى ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] وجعله قرين الشكر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] وجعله قرين الصدق ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ١٣٥]. اهـ.

١٠- فتح أبواب من العبادات للمؤمن الصابر كالدعاء والإخلاص والإنابة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وكذا يفتح له باب الحمد والثناء على الرب، وقد كان ﷺ إذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال. وإذا رأى ما يحب قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات». ومعنى الحمد لله: الثناء على الله مع حبه وإجلاله وتعظيمه. مما يروى في هذا: أن أحد

السلف لما بريء من مرضه، جاء الناس يهنئونه، فلما فرغوا من كلامهم، قال الفضل بن سهل: إن في العلل لنعمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وأذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة» وقد ذم الله أقوامًا لم يتضرعوا لله في حال البلاء ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

فعلى العبد أن يلتجأ إلى الله بالدعاء، ويأخذ بأسباب الإجابة وهي: الإخلاص لله حال الدعاء قوة الرجاء بالله والثقة بما عنده – التحري في انتظار الفرج واليقين بأن الله سيجيب دعوته – التوبة ورد المظالم – التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – بر الوالدين – تحري أوقات الإجابة منها: في السجود – عند الأذان – قبل السلام – وفي الثلث الأخير من الليل وعلى الداعي الإكثار، من قول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال العلماء: ما قالها مكروب إلا فرج الله كربه.

وقال ابن القيم: وقد جرب أن من قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ سبع مرات كشف الله ضره.

١١- معية الله للصابرين (إن الله مع الصابرين) قال ابن عثيمين: «وهذه الآية دليل على أنه مُعانٌ من قبل الله، وأن الله مع الصابر يؤيده ويكلؤه حتى يتم له الصبر على ما يحبه الله».

١٢- محاسبة النفس والرجوع بها إلى فيء الطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] قال بعض السلف: إنما جعلت العلل ليؤدب الله بها عباده «فالمؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه و لم يظهر عليه أثر الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، ويقول لها: إنما أتيت من قبلك ولو كان فيك خير لأجبت، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء، وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله». اهـ. ابن رجب.

١٣- إن الصابر لا يغفل عن تعداد النعم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] قال بعض السلف: ذكر النعم يورث الحب لله، ولما رأى رجل قرحة في يد محمد بن واسع ففزع منها قال له: الحمد لله أنها ليست في لساني ولا على طرف عيني» ورأى رجلاً فقيرًا مريضًا كفيفًا مقعدًا وهو يردد: الحمد لله الذي فضلني على كثير من عباده فقال: يرحمك الله وبماذا فضلك؟ قال: رزقني لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وجسدًا على البلاء صابرًا، وفي السير: جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقًا من حاله ومعاشه واغتمامًا بذلك. فقال: أيسرك ببصرك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فبسمعك؟ قال: لا، قال: فبلسانك؟ قال: لا، فبعقلك؟ قال: لا، وذكره نعم الله عليه. ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفًا وأنت

تشكو الحاجة.

وأذكر في هذا المقام قصة امرأة أصيبت بمرض نفسي فذهبت إلى طبيب نفسي، فقال لها: اكتبي النعم التي تتمتعين بها، واكتبي المصائب التي تعانين منها واحضري ذلك معك في الموعد القادم، تقول: بعد عودتي للبيت أخذت القلم لأكتب النعم والمصائب فاستحييت، كما يا تُرى ستأخذ النعم من ورق لأكتبها، وكم ستأخذ مني المصائب... إنها لا تتجاوز نصف الصفحة! !

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قيل في تفسيرها: الكنود الذي يعد المصائب وينسى النعم.

١٤- أن المصائب سبب في تكفير الذنوب وزيادة الحسنات ورفعة الدرجات[1]، قال بعض السلف: لولا المصائب لوردنا الآخرة من المفالس، وقال ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**» قال الحراني: يكفر عنه بالشوكة يشاكها، حتى بالقلم الذي يسقك من الكاتب فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه في دنياه، حتى يموت على طهارة من دنسه، وفراغ من جنايته كالذي

(١) قال ابن تيمية: عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب: التوبة – الاستغفار – الحسنات الماحية – دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته – ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ونحوها – شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة – المصائب التي يكفر بها الخطايا في الدنيا – ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة – أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها – رحمه الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد) باختصار مجموع الفتاوى ٤٨٧/٧.

يتعاهد ثوبه وبدنه بالتنظيف» يقول ابن عثيمين: «فـإذا أصـبت بمصيبة فلا تظن أن هذا الهم الذي يأتيك أو هذا الألم الذي يأتيـك ولو كان شوكة لا تظن أنه يذهب سدى، بل ستعوض عنه خيرًا، ستحط عنك الذنوب كما تحط الشجرة ورقها، وهذا من نعمة الله، وإذا زاد الإنسان على ذلك الصبر (الاحتسـاب): أي احتسـاب الأجر كان له مع هذا أجر. فالمصائب تكون على وجهين:

أ- تارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله، فيكون فيها فائدتان تكفير الذنوب وزيادة الحسنات.

ب- وتارة يغفل عن هذا فيضيق صدره ويغفـل عـن نيـة الاحتساب والأجر على الله فيكون في ذلك تكفير لسيئاته.

إذًا هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه، فإما أن يربح تكفير السيئات وحط الذنوب بدون أن يحصل له أجر، لأنه لم ينو شيئًا ولم يصبر ولم يحتسب الأجر، وإما أن يربح شـيئين ممـا تقدم. ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولـو بشـوكة فليتـذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة، وهذا من نعمة الله سـبحانه وجوده وكرمه حيث يبتلي المؤمن ثم يثيبه على هذه البلوى أو يكفر عنه سيئاته فالحمد لله رب العالمين».اهـ.

١٥- إن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكبر، كما ورد ذلك في حديث الرسول ﷺ، ويشمل النصر في الجهادين جهاد العـدو الظاهر وجهاد العدو الباطن، فمن صبر فيها نصر وظفـر بعـدوه، ومن لم يصبر فيها، وجزع، وقهر، صار أسيرًا لعدوه أو قتيلاً لـه،

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر: أن الكرب إذا اشتد وعزم وتناهى، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، ومن أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج فإن الله يكفي من توكل عليه كما قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

والأيام لا تثبت على حال واحد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] الدولة: الانتقال من حال إلى حال، من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر:

فيوم لنا ويوم علينا
ويوم نساء ويوم نسر

وإليك حادثتين سطرهما التاريخ:

الأولى: قصة وائل بن حجر ﷺ: كان أبوه من ملوك حمير، أقطعه الرسول ﷺ أرضًا، قال وائل: فأرسل الرسول ﷺ معي معاوية أن أعطها إياه، أو قال: أعلمها إياه، فقال لي معاوية: أردفني خلفك. فقلت: لا تكون من أرداف الملوك. ثم قال معاوية: أعطني نعلك فقلت: انتعل ظل الناقة... فلما استخلف معاوية أتيته. فأقعدني معه على السرير وذكرني القصة، فوددت أني كنت حملته بين يدي).

ذكر هذه القصة أحمد في مسنده وفيها من العبرة والعظة: أن معاوية الفقير أصبح ملكًا من ملوك الدولة الأموية.

والثانية: ما حصل للبرامكة في عهد الدولة العباسية من عز إلى ذل، قال ابن خلكان: من أعجب ما يؤرخ من تقلبات الدنيا بأهلها ما ورد عن ابن عبد الرحمن الهاشمي قال: دخلت على والدتي في يوم عيد أضحى، فوجدت عندها امرأة في ثياب رثة، فقالت لي والدتي: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هذه عبادة أم جعفر البرمكي! فأقبلت عليها بوجهي، وأكرمتها، وتحادثنا زمانًا، ثم قلت: يا أمي ما أعجب ما رأيت في هذه الحياة؟ فقالت: لقد أتى علي يا بني عيد مثل هذا، وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأعد ابني جعفرًا عاقًا لي. ولقد أتى علي هذا العيد، وما مُناي إلا جلد شاتين أفترش أحدهما والتحف بالآخر! !

وصدق الشاعر:

على ذا مضى الناس: اجتماع وفرقة
وميت ومولود وبشر وأحزان

وفي الختام نسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون من الصابرين، الشاكرين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهي